المحاضرة10:المسرح الشعري في الجزائر

تمهيد:

عرف المسرح الجزائري إبان الحرب العالمية الثانية نوعا من الركود بسبب الحرب، كما توفي في هذه الفترة عدد من رواده، وعلى رأسهم رشيد القسنطيني ولم يستأنف المسرح نشاطه بصفة جدية إلا بعد الحرب، حيث ظهرت فرق مسرحية جديدة وظهر مسرحيون جدد كانت لهم محاولات مسرحية كتبت بالفصحى منهم: كاتب مصطفى وأحمد رضا حوحو، وعبد الرحمن الجيلالي، وأحمد توفيق المدني، ومحمد الصالح رمضان، وأحمد بن ذياب، وعبد الرحمن ماضوي، ومحمد البشير الإبراهيمي ومحمد العيد آل خليفة.. الخ، ومعظم هؤلاء الأدباء ينتمون في عمومهم إلى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

ولقد شجع على ظهور المسرح المكتوب بالفصحى الظروف التي تهيأت له، وأسباب النجاح، وذلك بفضل الجو الثقافي الذي خلقته جمعية العلماء عن طريق نشر التعليم وبناء المدارس وتأسيس النوادي الثقافية والجرائد والمجلات العربية، مما يسمح بوجود جمهور مثقف بعض الشيء ويتمتع بقدر من الثقافة العربية، يستطيع أن يتابع عروضا مسرحية بالفصحى وأن يفهمها ويتذوقها خاصة وأن أغلب هذا الجمهور من طلبة المدارس والمعاهد،[i] ومن بين تجارب هذه الفترة تجربة محمد العيد آل خليفة المسرحية التي جاءت في ثوب جديد لم يألفه النص المسرحي الجزائري.

أولا - لمحة إلى حياة محمد العيد آل خليفة.

شاعر جزائري ولد سنة 1904م تعلم القرآن الكريم في مدينة عين البيضاء التي ولد فيها، ثم تابع تعليمه في مدينة بسكرة سنة 1918م، ثم غادر من بسكرة إلى تونس سنة 1921، حيث درس سنتين بجامع الزيتونة، وانكب أثناءها على المطالعة والحفظ، وبعدها رجع إلى بسكرة بسبب تدهور حالته الصحية ولم يتحصل على أية شهادة علمية، ولكنه أخذ يتردد على دروس الإبراهيمي والطيب العقبي، ويشارك بالمقالات والقصائد في التعبئة والنهضة العلمية والأدبية للبلاد في صحف مختلفة منها: صدى الصحراء، والمنتقد، والشهاب، والإصلاح... الخ.

دعي سنة 1927 إلى العاصمة للتعليم بمدرسة الشبيبة الإسلامية الحرة حيث بقي معلما بها ومدير لها لمدة اثني عشر عاما، وفي هذه الفترة أسهم في تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وكان من أعضائها النشطين، وشاعرها، حيث نشر الكثير من القصائد في صحفها، ثم عاد عام 1940 إلى بسكرة ومنها إلى باتنة أين عين مديرا لمدرسة التربية والتعليم، وبعدها إلى عين مليلة لإدارة مدرسة العرفان، وبعد اندلا ع الثورة المجيدة ألقي عليه القبض، ودعته فرنسا إلى إمضاء منشور يندد فيه بالثورة فرفض، مما عرضه لمضايقات انتهت بوضعه تحت الإقامة الجبرية ببسكرة حتى سنة 1962[ii].

توفي الشاعر سنة 1979 بباتنة، ليترك زاد ا شعريا ثريا، وهو شاعر الوطنية والنضال، له ديوان حافل بالقصائد الوطنية طبع سنة 1967، كما ترك مسرحية شعرية واحدة، هي مسرحية "بلال بن رباح"، والتي كانت

طفرة أدبية في تاريخ المسرح الجزائري، وسلاحا في يد مؤلفها لإيقاظ الشعب الجزائري من غفوته، بحثه على الصبر لنيل المطلوب والمبتغى، وهي الحرية والاستقلال.

ثانيا- محمد العيد آل خليفة وتجربة المسرح الشعري.

لقد غرف المسرح الجزائري من ينابيع التراث فوجد فيه مادة غنية بالمضامين والطاقات والدلالات التعبيرية، فالتراث يمنح الخطاب المسرحي قدرة إبلاغية كبيرة، بحكم تمكنه من وجدان الأمة، ومن هنا عمد كتاب المسرح الجزائري إلى توظيف التاريخ العربي الإسلامي لتحقيق غايات سياسية تنسجم مع روح المقاومة الوطنية للاستعمار الفرنسي.

وبذلك فإن المسرحية التاريخية تكون معادلا موضوعيا للتعبير عن الواقع المعيش وذلك من خلال السعي إلى إسقاط الماضي على الحاضر[iii]، والشاعر محمد العيد آل خليفة في مسرحيته الشعرية التاريخية "بلال" «يركز على المعاني ترمز إليها مواقف بلال من جلاديه ومضطهديه، ليدعو من خلال ذلك الشعب الجزائري إلى اقتفاء أثر الأسلاف ومقاومة المستعمرين بالصبر والنضال من أل الوطن والعقيدة»[iv]، ولذلك لم يلتزم الشاعر فيها بالواقع التاريخي حرفيا، وإنما أدخل على القصة شخصيات ومواقف لم يكن لها وجود أصلا، وهدفه من ذلك التأثير في نفوس الجماهير التي كانت تهتز وتتأثر بمواقف البطولة والشجاعة التي كان يظهرها الصحابة –رضوان الله عليهم- في سبيل عقيدة الإسلام.

وإذا كان بلال يبدي صبرا قويا وجلدا في مواجهة العذاب الشديد، ورفض أن يغير دينه الذي آمن به، ففي ذلك دعوة صريحة للشعب الجزائر ي كي يصبر ويتمسك بدينه وعقيدته وهويته وبربه، لأنه سيجعل له مخرجا من محنته لا محال،[v] والمسرحية جاءت في فصلين، عمد الشاعر في بنائها إلى إبراز أسس فنية عالية في البناء المسرحي خاصة من حيث الشكل.

وهذه المسرحية الشعرية الأولى في تاريخ الأدب الجزائري الحديث، تدو ر أحداثها في الحجاز في عهد ظهور الإسلام، وعقدتها هي الاستماتة في سبيل العقيدة، والبطل فيها مثال للإيمان القوي، والصبر الطويل حتى الانتصار في النهاية، كما تحمل المسرحية كثيرا من بذور المأساة في لغتها وأحداثها، حتى اعتقد المؤلف أن بطله يؤدي بذلك عملا قوميا هادفا.

فبلال قاوم جميع المغريات ورضي بالعقاب والإهانة في سبيل عقيدته حتى النصر، كما كانت الجزائر كلها تقاوم مغريات شبيهة، من اندماج وإلحاق بفرنسا، وقد استعذبت الأ لم في سبيل المحافظة على شخصيتها القومية حتى انتصرت هي الأخرى في النهاية،[vi] وهذه رسالة من المؤلف للناشئة إلى إدراك معنى الصبر والجهاد والثبات حتى تحقيق النصر، والوقوف أمام المغريات والرضى بالعذاب بدل الخنوع والخضوع والاستسلام.

ويقول الكاتب نفسه في مقدمة مسرحية بلال، في معرض حديثه عن التصرف في الأخبار التاريخية، واستعمال الخيال في العمل المسرحي:«ولم أقف في هذه الرواية عند ما صح من الأخبار، بل أضفت إليها –كما

هو شائع في تأليف الروايات- نتفا من ضعيفات الأقوال، وبنيات الخيال، لتكون متعددة الحوادث، متنوعة المشاهد، فينتج عن ذلك ما نرمي إليه من حصول التأثير في نفوس الجماهير»[vii]

ولقد مثلت المسرحية سنة 1939بمناسبة المولد النبوي الشريف، ونكاد نسمع في أحد مقاطعها صوت الجماهير الجزائرية وهي تندد رافضة الذل والهوان، وعلى لسان بطل المسرحية حين يقول "بلال"[viii]

آه من الرق آه قد ضقت بالرق ذرعا

لو أنني كنت حرا صدعت بالدين صدعا

كيف لخلاصي فإنني وقعت في شق أفعى.

والمسرحية في محتواها الرمزي دعوة إلى مقاومة العدو الفرنسي بالصبر والنضال على نهج وآثار الشخصيات الإسلامية التي واجهت بطش الكفار والمشركين، وإيمانا منهم بعدالة قضيتهم، ولقد كان موقف بلال هو مواجهة زعماء الشرك مع فجر الإسلام ورسالة الشاعر هي دعوة الناشئة إلى إدراك معنى الصبر والجهاد والثبات من أجل تحقيق النصر، لذلك يقول: «وأرجو أن تتلقى ناشئتنا درسا نافعا في الثبات على المبدأ وقوة اليقين، والصبر على المكاره في سبيل الدين، وتعلم أن العظمة الحقة، والمجد الخالد إنما يكونان بسمو النفس وطهارة الروح وكمال الخلق»[ix]

والمتلقي لهذه المسرحية يقف على براعة الشاعر وتحكمه في المسرح الشعري، إذ لم يلتزم بحرا واحدا، بل نوع بين البحور منتقلا بين البسيط والكامل والطويل والرجز والوافر والخفيف، وبين أنواع البحور من التام إلى المجزوء إلى المشطور وهذا التنو ع أضفى على المسرحية خفة وحركية، ونفى عنها الرتابة والملل، كما نوع في حروف الروي لينوع بذلك في إيقاع المسرحية وموسيقاها.

ثم إنه لم يطل كثيرا في الحوار المسند إلى الشخصية الواحدة حتى وصلت في كثير من الأحيان إلى حرف واحد، كما في المشهد الخامس من الفصل الأول[x]

عقبة: عبد خبيث منه أمية في ارتياب

أمية: وماذا كان منه؟ فليس عهدي به إلا بصيرا بالصواب.

عقبة: يزور محمد، سرا.

أمية: أحقا؟!

عقبة: أجل وينال منا بالسباب.

أمية: أأنت رأيت ذلك

عقبة: نعم مرارا وإن حذف التنكر في الثساب.

أمية: إذا هو بي حفي في حضوري، وخصم لي في غيابي

لأنتقمن منه.

عقبة: تأن.[xi]

وتتميز المسرحية أيضا بخصوبة اللغة ورونقها، حيث برزت اللغة العربية الفصحى وفي حلة قشيبة طوعها الشاعر لخدمة الحوار و تحقيق غايته، كما نقرأ ذلك في المشهد الأخير من الفصل الأول:

بلال: قول هو الله

الكاهن: إذن فالعبد معتوه (الكاهن يعوذه بالتعويذة التالية)

أعيد العبد بالزعزع وبالنجم إذا يلمع

وبالحية والضفدع والبومة والبوه

أعيد العبد بالهبهب وبالسارين في السبسب

بلال: أفق انت هو الهاذي وصه ما أنت أستاذي

تول الله انقاذس فلن أبرح أدعوه

أقلني لست مغرورا فما أرجوك أظفورا

وخل الكذب والزورا فشيطانك مسفوه.[xii]

لقد أبدع الشاعر في توزيع الحوار بين الشخصيات، وقدم خطابا مناسبا لكل منها، فكلام "بلال" يعكس إيمانه وصبره وتحديه، وأما كلام "الكاهن" فيعكس اعتقاده وإيمانه بالأباطيل، ينضاف إلى هذا حيوية اللغة وجماليتها وبيانها،[xiii] ولا غرو في ذلك، وقد كان محمد العيد آل خليفة من كتاب المسرح الفصيح الذي يهدف إلى التربية والتثقيف، وكذا التدرب عليها وإتقانها من أجل استعمالها في الكتابة والحديث كرد على فكرة الاندماج وطمس الهوية العربية الإسلامية في الجزائر.

ثالثا- البشير الإبراهيمي ومغامرة المسرح الشعري.

في المسرحيات الجزائرية يمكن أن نسجل حضور الشعر على ثلاثة أشكال: فأما الأول فهو اعتماد المؤلف على نص شعري خارج عن مملكة إبداعه*، وإنما من إبداع إحدى الشخصيات المسرحية ، وأما الشكل الثاني فهو تطعيم الأديب نصه المسرحي بشيء من الشعر يؤلفه هو*، ويجريه على لسان بعض شخصياته الرئيسة خاصة، ويأتي الشكل الثالث وفيه سيادة الشعر على لغة الحوار ، فلا تأتي إلا شعرا ومن هذا النوع مسرحية بلال لمحمد العيد آل خليفة، ورواية الثلاثة للبشير الإبراهيمي... الخ.

و"رواية الثلاثة" تعد ثاني مسرحية شعرية عرفها المسرح الجزائري سنة 1941 على يد الشيخ المصلح البشير الإبراهيمي، ولقد كتبها في نحو واحد وسبعين وثمان مائة بيت، وهو في إقامته الجبرية وسماها "رواية الثلاثة"، حيث أراد تقديم عمل مسرحي عن طريق تحديد الفصول والمناظر والحوار، فعدد الفصول ثلاثة تتم في جلسات ثلاث داخل مكتب المدير ويسدل الستار مع نهاية كل جلسة لتغيير هيئة الشخصيات، وبعض ترتيبات مكتب المدير.

ثم إن "رواية الثلاثة" مسرحية شعرية من أولها إلى آخرها نظمت على بحر واحد هو بحر الرجز، التزم فيها المؤلف بما يسمى لزوم ما لا يلزم[xiv]، يقول في إحدى حواراتها:

وعليهم أن يحسنوا تصريفها أو سوقها

وعليهم أن يقتلوا برغوثها وبقها

وعليهم أن يجمعوا بعصا الكياسة فرقها.

إلى أن يقول: إن البروق كواذب والغيث يظهر صدقها

إن الفخار معالج من يخشها لا يرقها

إن الفضيلة خمرة فأت المحامد نسقها

إن الليالي لجة والكل يحذر غرقها

شر الخلائق أمة علم المهمين فسقها[xv]

يتجلى من الأبيات هدف الإبراهيمي من هذه المسرحية الشعرية، والتي أراد بها تعليم القراء والاستفادة منها، ومخاطبة الأدباء والكتاب ليستلهموا العبر والعظات منها، ففيها تمجيد للمسلمين وعظمتهم وحضارتهم وقوتهم، وكذا إشارة إلى التحلي بالفضائل ومكارم الأخلاق، والابتعاد عن الفسق والفجور الذي يجعل من الأمة شر الخلاق.

والحقيقة أن هذه المسرحية الشعرية لا ترقى إلى مستوى مسرحية "بلال"، ذلك أن البشير الإبراهيمي لم ينوع في البحور الشعرية والتزم بحرا واحدا مما جعلها ثقيلة ممجوجة، كما أن عدم إطلاعه على أساليب التأليف المسرحي جعله يستطرد في الحديث ويكرر المعاني ويذهب مذاهب شتى، حتى تبلغ أبيات المتحدث الواحد ثمانين بيتا أو ما ينيف عنها، وهناك جهد مسرحي شعري آخر نفتقر لنصوصه وهي مسرحيات محمد الأخضر السائحي الشعرية الثلاث: الراعي، وحكاية الثورة، وأنا الجزائر، التي كتبها عقب الاستقلال متبعا نهج سابقيه في النظم على الشعر العمودي، أما المحاولة الأخرى التي اختارت الشعر الحر ليكون لغة للمسرح فهي اوبيراتات "عز الدين ميهوبي" وهناك خلاف حول المصطلح لأن الأوبيرات ليست المسرح الشعري شكلا ومضمونا.